الحرية واستقلال الفكر

آخر خطبة لي ببيروت

دعيت الى حضور الاجتماع الشهري لجمعية الجامعة العثمانية ببيروت في أوائل هذا الشهر (آذار) فاقترح علي رئيسها ان أخطب فيهم بما يفتح الله به حاكيا عن وغبة الجمهور فقمت وقلت ما ملخصه بحسب ما أتذكر

أيها الاخوان الكرام

إن المسائل التي نحتاج الى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جدا فمن الناس من اذا اقترح عليه ان يخطب يبادر الى الكلام في الموضوع الذي يتبادر الى ذهنه سواء كان مطابقا لمقتضى الحال يرجى ان يستفيد منه السامعون مايصحح أفكارهم أو يقوم أعمالهم أم لا . ومنهم من يرى هذه الطريقة منتقدة وانه لابد ان يخاطب الناس بما يتعلق بحالهم وما ينبغي ان يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم فلا يحثهم على ماسبيل اليه ولا يقرر لهم مالا يفهمون حقيقته

مثال من ذلك : ان بعض الخطباء يقف فيقول أيها العثمانيون عليكم ، بالاتحاد عليكم بالائتلاف ان الاتحاد هو مفيض العمران ومرقي الأوطان ورافع شأن الإنسان . و يكتفي بمثل هذه الخطابيات المجملة التي لايعلم السامعون كيف يمكن العمل بها فان اتحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والافكار والاخلاق والتقاليد والعادات من الامور لا يمكن ان تحصل بمجرد الحث عليها ومدحها وإنما يجب بيان مايشترك فيه من يراد حثهم على الاتحاد واقناعهم بأن منافعهم ومصالحهم مرتبطة به وانها إنما تحفظ وتنمو باتحادهم واتفاقهم وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرقهم

أما أنا فأقول ان كل كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة والفكرة الاجمالية لا تخرج الى حيز التفصيل إلا ابرازها بالقول أو بالكتابة ومن لم يستفد اليوم من الكلام

الصحيح فائدة تامة يرجى أن يستفيد غدا فليقل كل أحد مايرى أنه حق نافع وليقدم الاهم على غيره وهو ما كانت حاجة الناس اليه اكثر . واذا قيل لنا ما هو أهم ما نحتاج اليه الآن ؟ قلنا أننا محتاجون الى اشياء كثيرة من العلوم والاعمال لاجل ان ننهض لنكون به أمة عزيزة ولكن نهوضنا يتوقف على أمر عظيم لايحصل بدونه . فما هو هذا الامر الذي هو شرط للارتقاء في كل علم وكل عمل بحيث يلزم من عدمه العدم ؟ ألا إنه هو الحرية الشخصية واستقلال الفكر

قد قلت في بعض الخطب التي تكلمت فيها عن الحرية ان استعداد البشر للارتقاء ليس له حد يعرف ولا غاية تحدد فاذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن يكونوا في ارتقاء مستمر لا ينقطع اذا كانت حريتهم في العلم والعمل مصونة من عبث المستبدين فهكذا ترتقي الامم على قدر صيانتها واحترامها للحرية وتتخلف عن الارتقاء بل ترجع الى الوراء على قدر عبثها بالحرية وتحكمها في الباحثين والعاملين

مضت سنة الله في البشر بأن الفكر يسبق العمل فاذا كانت أفكار العقلاء والاذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة في النمو فإنها لاتكون مستقلة والامة لا تخطو خطوة واحدة الى الأمام الا اذا أطلقنا العنان لجياد الافكار تجول في ميادين الكتابة والخطابة بلاحجر ولا ضغط لا فرق في ذلك بين المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها

يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا لأن الفلاح متوقف على ظهور الحقائق وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار وحرية البحث والكتابة والخطابة ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا من لا ثقة له بدينه ومن كان واثقا بأنه على الحق فانه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيده الا قوة وظهورا فقد نطق الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلا واختبارا من أن الحق يعلو ولا يعلى وانه ما تصارع الحق والباطل الا وصرع الأول الثاني « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق » وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

علينا أن نبحث بعد هذا عن أنفسنا لنعلم هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية القول والعمل ؟ هل فينا يحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة الاجتماعية والسياسية واسبابها ؟ إن حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وافكارنا

والحجر على ألسنتنا وأقلامنا لنكون احرارا في أقوالنا واعمالنا فهل صرنا أحرارا بالفعل؟

نعم أن الحكومة تركت الاستبداد والاستعباد وأباحت لنا الحرية طوعا أوكرها ولكننا ما قبلناها فان الافكار لاتزال مضغوطة محجورا عليها أن تبرز من مضيق الدماغ الى فضاء الوجود الخارجي والحرية الشخصية مهددة لا من الحكومة بل منا أنفسنا

في البلد حوادث حيوية كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها بالحرية . ولماذا ؟ أيخاف من « المراقب » أن يرجعها له ؟ لا إن الجرائد لا تعرض الآن على المراقبين كما كانت تعرض في زمن استبداد الحكومة ولكن ما سقط مراقب الحكومة الا وقام مثل عمله من لا يحصى من دهماء الأمة يفتاتون على أصحاب الجرائد وكتابها وعلى الحكومة نفسها وربما كان هذا الاستبداد أشد وطأة وأثقل ضغطا من استبداد الحكومة

إن جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المراقب وكانت نسبة أصحابها ومحرريها اليه كنسبة محرري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرة الى رئيس التحرير أو مدير السياسة . فكانوا اذا أرادوا كتابة شيء يتحرون أن يكون بحيث يرضيه وقد عرفوا ما يرضيه ويجيزه فلم تكن مراعاته متعذرة عليهم ولكن يتعذر عليهم الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلوا محله لأن عقولهم وآراءهم ليس لها قاعدة ترجع اليها ولا ميزان توزن به . فهل يمكن أن ترتقي الصحافة أو الافكار في بلاد يفتات على حملة الاقلام وارباب الافكار فيها كل أحد حتى البحار والحمال وبائع الحمص والفول !!

انا قد تغنينا باسم الحرية في أيام إعلان الدستور وألقينا الخطب الكثيرة في وصفها ، وانشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزل بها ، وكان هتاف الجماهير للخطباء والشعراء يعلو في الجو حتى يبلغ عنان السماء ، وكتبنا ذلك الاسم الجميل « الحرية » بالخطوط الجميلة وزينا به البيوت والمعاهد العامة والخاصة والحدائق فظهرنا بمظهر العاشق الولهان لهذه الحرية الجميلة ولكنني اخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أم عمرو ؟ ولعل بعض الحاضرين لا يعرف خبر هذا العاشق فاذكره إعلاما له وتذكيرا لغيره من بعض الناس بصديق له مرة قرأه على غير ما يعهد : رآه قلقا مضطربا فسأله

عن حاله فقال إنني عاشق ولهان لا يقر لي قرار ، ولا يطيب لي اصطبار ، ولا يهنأ لي طعام ، ولا يزور جفني منام ، قال له صاحبه من عشقت ؟ قال عشقت أم عمرو ، اجمل نساء العصر ، قال من هي أم عمرو ومتى رأيت وجهها المليح ، فبرح بك هذا التبريح ؟ قال لا أدري من هي ولا لمحتها عيني وانما سمعت رجلا ينشد في الطريق:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردّي عليّ فؤادي اينما كانا

فقلت في نفسي لولا ان أم عمرو هذه أبرع النساء جمالا وحسناء وأوفرهن من القسامة قسما ، لما قال الشاعر فيها هذا القول فعشقتها

وقد طال على هذا العاشق الاحمق عشق تلك المعشوقة المجهولة حتى مرّ به صاحبه يوما فاذا هو يبكي وينتحب قد ساورته الاحزان ، وواثبته الاشجان ، فسأله مادهاك ؟ فصاح أواه واو يلاه ! لقد بليت بأشد المصائب وأعظم النوائب فقد ماتت أم عمرو . وغلبه النشيج وأخذ في النحيب ، ولما سكت عنه الروع قال له ومن أخبرك بموتها فهل رأيتها وعرفتها ؟ قال لا ولكنني سمعت الشاعر ينشد في الطريق:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت لولا انها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول

نعم انني أخشى ان تكون حريتنا المعشوقة ، هي أم عمرو المجهولة ، فان الحرية الحقيقية قد تعرفت الينا فنكرناها ، ورغبت فينا فرغبنا عنها ، وأحبت القرب منا فاخترنا البعد عنها ، والا فما بال الكثيرين منا ، يسلطون العامة على من يبدي رأيا يخالف رأيهم أوهوى أنفسهم ، يهددونه ويهينونه ، واذا لم يوجد له عصبة تمنعه منهم فانهم يضربونه ، ومتى كانت الحكومة المستبدة تضطهد حرية الفكر والعلم أشد من هذا الاضطهاد ، وتحاول استعبادا أقبح من هذا الاستعباد ، أي العبوديتين اذل ؟ آلعبودية للحكومة أم العبودية للعامة ؟

كان الخطباء والشعراء يقولون في أيام عيد الحرية في مدح الأمة نحوا مما يقولونه في مدح الحرية نفسها لإظهار التناسب بينهما ولا يزال كثيرون منهم يسمعوننا مدح أنفسنا ويشيدون بفضلنا وفضل سلفنا ، ويتمثلون بقول شاعرنا : نبني كما كانت أوائلنا الخ

أما أخوكم هذا فيقول ان ما كان يقال في أيام عيد الحرية لا ينبغي أن يقال اليوم ولا في كل يوم . ان الأعياد في عرف الناس هي أيام السرور والابتهاج فيحسن ان

يتناسي فيها ما يسوء ويتحرى فيها ما يسر ، وهذه أيام الجد والعمل فيجب ان نعرف فيها ما نحتاج اليه في هذا العصر لنجاري الامم العزيزة القوية ، الرائحة في بحبوحة المدنية ، لان أن نمني النفس بالأقوال التي يلذ سماعها ونترك السنن التي نرقى باتباعها ،

ياقوم انا مرضى ومن كتم داءه قتله ، انا مرضى ويجب علينا ان نداوي أنفسنا ، ان الادوية لا يقصد بها اللذة ، بل يقصد بها المنفعة ، هل سمعتم ان الأطباء يداوون المريض المدنف باطعامه اللحوم المعالجة بالبقول والافاويه والكنافة والبقلاوة والاشربة المثلوجة ؟ لا لا انهم يداوونه بالمسهلات البشعة الطعم والكينا المرة وربما داووه بالسكين بنال شيئا من بدنه . وكذلك تكون أدوية الامراض النفسية . وانه ليسوءني ان أصرح لكم بما يؤلمكم ولكنها الحقيقة لا بد منها وان كانت مرة كالدواء ، وأخوك من صدقك لا من صدقك ،

ان من فضل الحرية علينا ان صرنا قادرين على البحث عن مرضنا وعلى الاجتهاد في معالجته فيجب ان نعرف قيمة هذه النعمة وان نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها

أعود فأقول انا لا يجوز لنا ان ندعي انا عرفنا الحرية وانا نقدرها قدرها الا اذا كنا نحترم استقلال الفكر فلا نعارض أحدا في إبداء رأيه واظهار علمه باللسان أو القلم ولا يمكن ان نخطو خطوة واحدة الى الامام بدون هذا

فعليكم أيها الفضلاء المحبون لخير أمتكم وتقدم بلادكم أن تنصروا الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية وأن تبذلوا جهد المستطاع في بث هذا الفكر في طبقات الأمة وتقنعوا أولئك الذين نسمع أخبار افتياتهم على الكتاب وأصحاب الجرائد بأن عملهم هذا ضار ببلادهم وان الذين يغرونهم بذلك هم اهل الأهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو فيما يضر بلادهم

انصروا حرية البحث والطباعة لكي تتجلى للأمة الحقائق فتعرف ما يضرها وما ينفعها ولكي تترقى فيها العقول الكبيرة بعد رفع الضغط عنها . ان تعملوا هذا تخدموا بلادكم أجل خدمة . وأراني اطلت عليكم في هذا الكلام الحار مع حرارة الجو بكثرة الاضواء وازدحام الناس فحسبي هذا والسلام